كلام في المجزرة

هذا الكلام عن المجزرة يكثّف الخطوط المميزة لنوع من السيَر. الضحايا البروتستانت يتميزون برصانتهم وتسليمهم بالتضحية مقابل شعب كاثوليكي لا يُبدي له الكاتب إلا كل احتقار. إن التشديد على تاريخ وشخصيات الضحايا، شقيقان نبيلان، يخفي بشكل كبير المجزرة، والكتاب يذكر بسرعة أن الكاثوليك "قتلوا عددًا كبيرًا من الناس الآخرين". هذا النص إذًا يطهر نوعًا من سير الشهداء أكثر من كونه وصفًا للمجزرة.

النص لا يقل أهمية لوصفه تصاعد الاحداث وإقامة الآليات المنتجة للعنف من جديد. إن صعود التنابذ الطائفي قد استعيد: إنه مرتبط بإقامة عبادة نصف-سرية (كنيسة أقيمت مع قسيس مسؤول عنها) ومقترنة برجل دين. من دون مفاجأة، وبقلم كاتب "التاريخ الكنسي"، فإن تصرّف الهوغونو هو نموذجي: إذ بوجه عدم عدالة وإنصاف وحيادية السلطات القضائية، فهم بقوا يلجاون إلى العدالة الملكية. هناك أيضًا ملمح مهم لهذه المجازر، وهم الأطفال، الذين كانت تثيرهم السلطة الدينية، والشعب الذي يطلق المجزرة. إن طقس المجزرة تمّ وصفه بشكل مرعب ولم يتمّ استبعاد أي عنصر من عناصر التوحّش الكاثوليكي بالنسبة للقارئ. إن الموقف المسبق الطائفي هنا يجد نفسه مدعّمًا بموقف مسبق اجتماعي، فالشعب المتدني المستوى "الثائر والمهتاج" يتم لصق صف البربرية به.

في العام 1559، أنطوان وبول دو ريشياند، أسياد موفانز، ومن بعد ان تابعا طويلًا الحروب، انسحبا إلى منزلهما المتواجد في الجزء الاعلى من البروفانس في مدينة كستيلان. وهما كانا يرغبان بالعيش بحسب مشيئة الله، مع بعض الأشخاص الآخرين، قاموا بخلق نوع من الرهبنة في كانون الثاني وقد انضم إليها ناس من كل الأرجاء. وعندما أتى الصوم، هؤلاء الآتون من الكاستيلان حصلوا على مبشّر الذي لم يستطع تحمّل هذه الجمعيات، فقام بهجرجهم وإطلاق كل أنواع الشتائم والاتهامات المهينة بحقهم. وعلى الرغم من قيام مسؤول هذه الجماعة بالكتابة إليه شارحًا له تاريخ وعقيدة الجماعة، فإنه لم يقتنع لا بل ادعى أنه تلقى تهديدات من قبل أحد اعضاء هذه الجماعة وهو أنطوان.

ومن دون التقصي حول صحة هذه الاخبار، فقد تمّ محاصرة أنطوان من قبل خمسة أو ستة رجال مسلحين، لكنه استطاع الفرار من بينهم. شقيقه بول، وبسبب هذه الحادثة أتى إلى برلمان آكس ليقدم شكوى بحق ما حصل مع شقيقه، وقد تمّ استقباله ودعمه من عدد من المستشارين بانتظار إرسال بعض المحققين ليتحققوا مما حدث. ولكن بدل ان يقوم هؤلاء بمسك العصا من الوسط، فهم قاموا بالاستعلام ضد الاخوين انطوان وبول متهمينهما بالهرطقة والكفر. بعد أن راى ذلك قام بول باللجوء إلى الملك هنري الثاني الذي كان لا يزال حيًا وحصل منه على إمكانية رفع قضيته امام برلمان غرونوبل. لكن الأمور لم تجر كما توقع، ما جعله واخاه يخافان، وشعرا مع جماعاتهما أنهم عرضة لظلم كبير، إذ أنهما متهمان بما كان خصومهما يقومون به.

في هذا الوقت بالذات، تابع انطوان محاولة التفاهم مه جماعة كاستيلان، ولهذا وجد نفسه في فريجوس بحثًا عن أقاربه وأصدقائه. ولم يكد يصل إلى مدينة دراجيغنان، حتى وصل عدد من اطفال المدنية (المتأثرين والمقادين من قبل عدد من الكهنة وبمستشار برلمان منطقة آكس) وهم يصرخون عاليًا من بعد قادتهم لهذا الرجل اللوثري. وقد اجتمع على صوتهم أكثر من 3000 شخص واحاطوا بمنزل انطوان. وعندما أدرك انهم لا يمكن ان ينجو منهم، وعلى الرغم من انه حاول مقاومتهم، لكنه عاد سلّم نفسه إلى أيديهم.

لكن غصب هؤلاء الناس لم يكن من السهل احتواءه، فما كان إلا ان قُتل انطوان على يد أحدهم، وقد مورس على جسده حدّ هائل من التوحّش يبدو معها من المستحيل أن يقوم أحدهم بوصفه. فمن بين عدد من الأمور البربرية التي تعرّض إليها انطوان، ثم نزع أحشاؤه من بطنه، وجرّه في المدينة، ومن ثم رمي في جورة المدينة في اكثر الاماكن قذارة وتلوثًا. تم انتزال قلبه وكبده وحملت في أرجاء المدنية كعلامة على الانتصار. حتى أن اهتياجهم وصل بهم إلى ان قام أحدهم بتقديم قطعة من الكبد إلى كلبه، الذي كان عنده إنسانية أكثر منهم، فرفض أكلها ومشى فما كان من صاحبه إلا ان لحق به مكيلًا الشتائم وناكرًا الله "هل ان أيضًا لوثري كما انتي موفانزي؟" عندما قام بول بالطلب من البرلمان التحقيق بهذه الجريمة القذرة والدنيئة، قام بإرسال مستشاريه هنري فيكتوريس وإسبري فيتاليس إلى دراغينيان، حيث بدل ان يقوما بالاستقصاء عما حصل معرفة من هم القتلة، قاما بالتقصي حول حياة انطوان واخلاقه وتبديل مذهبه. وبعد ان ملحا جسد انطوان، قاما

بالطلب من قاتليه باقتياد جسده ، وكان احدهم إسمه برومير، وذلك حتى وصلوا إلى جسن آكس، وقد تم دفع مقابل مالي لمن قادوا الجسد. أكثر من ذلك، إذ قام أحد الكوميسار باستفزاز جماعة كاستيلان التي أتت من أجل تسلّم الجسد: "إذهبوا، إذهبوا، يا سفلة، نحن هنا قتلنا العجوز، لماذا لا تقومون أنهم بقتل الشاب. انتم لا تساوون شيئًا، انتم لا تظهرون أية شجاعة. أقتلوا! أقتلوا كل هذه الحفنة من اللوثريين". إن هذا الشعب المهتاج والمثار، شعر بالتشجيع من قبل من كان مفترضًا به ان يقتادهم إلى العدالة، ولهذا بات الشعب فخورًا ومغرورًا. ولأنهم لم يستطيعوا ان يمسكوا ببول، قاموا بقتل عدد كبير من الناس، من دون ان يلقوا أية عقوبة أو مساءلة، بشكل ان كل شيء كان متاحًا لهؤلاء العبثيين.

المصدر: التاريخ الغكليريكي لكنائس الإصلاح في مملكة فرنسا، طبعة تولوز المنشورة بحسب نسخة 1580، 1882، الجزء الأول، ص 205-206.